الأستاذة خولة ميسي / جامعة تبسة

الخصومة بين النقاد اللغويين و النقاد الشعراء و تبعاتها النقدية

1- تمهيد :

يعتبر النقد الأدبي وليد الأدب ، و علم من العلوم التي عنت بدراسته و الحكم عليه ، فكان ثمرة من ثماره ، يؤثر فيه و يتأثر به ، و يستمد مقوماته منه ، فتتباين فيه مذاهب النقاد و مناهجهم ... . و لعل لمصطلح النقد و مفهومه قدم راسخة في القدم ، فقد نشأ منذ بدأ الإنسان يعقل و يدرك ، و يلاحظ و يميز ، و يستجيد و يستهجن ...

و لكن مصطلح النقد الأدبي قد تعلق في مفهومه بالأدب و أنواعه (شعر و نثر) ، لذا كان ميدانه الذي يعمل فيه و العلم الذي يستكشف أصالة أو عدم أصالته و يميز بين جيده و رديئة . و سواء كان النقد علما أو فنا فانه ليس قائما بذاته ، و إنما هو متصل بالأدب ، يستمد منه وجوده ، و يسير في ظله يرصد خطاه و اتجاهاته .[1]

و كلمة (النقد) تعني في مفهومها التمييز بين الجيد و الرديء و إطلاق الحكم على النصوص الأدبية،هذا ما يجعل من الناقد الحاكم أو المصدر لأحكام نقدية،لذا يفترض به أن يكون خبير لديه مؤهلات خاصة يستطيع بها أن يتبين مزايا وعيوب أي عمل أدبي وأن يصدر عليه حكما.[2] ليعالج الناقد بذلك كل مقومات الحياة العلمية والفنية و الاجتماعية و السياسية بقصد الإصلاح والإعانة على الترقي وهداية العاملين في كل هذه المجالات إلى أقوم السبل .

---

[1] عبد العزيز عتيق : في النقد الأدبي ، دار النهضة العربية ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1972 ، ص 263 .

[2] المرجع نفسه ، ص 265 .

و قد انقسم النقاد إلى مدارس اختلفت و تباينت فيما بينها ، فمنه من يعتقد أن النقد نشاط فكري ، و هذه الحيوية الفكرية هي التي تحفظ له سماته الفارقة ، و لا بد أن يظل كذلك و ألا أصبح جائرا متعسفا ،[3] و تتمثل في مدرسة النقاد العلماء من النحويين و اللغويين ، و التي تركز في حكمها على النصوص الأدبية على معايير قوا عدية ، متعلقة بتقفي جوانب النحو و الصرف ، ومكمن الخطأ و الصواب فيها ، و عليه فقد سعت نحو الموضوعية و المنطقية ، على خلاف مدرستي النقاد من الشعراء ، و النقاد من الأدباء غير الشعراء اللتان اعتبرتا النقد عمل فني ، و أنه يراوح ما بين الالتزام بالقاعدة و الإبداع[4] لذا كان حكمهم النقدي يستند على الذوق و الخبرة المدربة و الموهبة في قول الشعر و كتابة النثر ، لتكون بذلك وجهتهم النقدية ترتكز على التشكيل الجمالي و العناية بالأساليب و المعاني و الألفاظ و التراكيب المكونة للنص الأدبي ، دونما التركيز على القواعد النحوية و اللغوية التي تجمع شتات الألفاظ و المعاني في تسلسل منطقي .

و قد دارت بين هذه المدارس معارك نقدية ، قد أسست فيما بعد لما يعرف بالنقد القديم ونظرية النقد الأدبي عند العرب ، فما طبيعة هذه الخلافات النقدية ؟ و ما هي هذه القضايا النقدية التي طرحت و عولجت اثر هذا الصدام النقدي و المنهج للعرب قديما ؟

2- أوليات الخصومة بين النقاد اللغويين و النقاد الشعراء :

من المؤكد أن لهذه الخصومة أوليات تمتد من القرن الثاني هجري إلى القرن الثالث هجري ، أين تأسس علم النحو و اللغة ، بعدما تفشى اللحن بين أواسط المسلمين القدامى و الحديثي العهد بالإسلام لانفتاح البقاع الإسلامية على الثقافات الأخرى (اليونانية ، الفارسية ، و الهندية ، والقبطية ...) ، فاهتمت طبقة من النحاة و اللغويين باستنباط قواعد عامة يسير عليها الأدباء والشعراء ، فقالوا بضرورة التمسك بها و الحفاظ عليها ، حتى تستمر لغة العرب و آدابها قوية

---

[3] عصام حسين إسماعيل أبو شندي:نقد النثر العربي في كتابات إحسان عباس،دار الشروق،ط1،عمان،الأردن، 2006،ص 21 .

[4] المرجع نفسه ، ص 21 .

جميع نواحيه ، مع الاستعانة بالأصول المقررة في اللغة و النحو و العروض وأبواب الأدب . و هذا ما فتح الباب أمام العلماء ليبدؤوا بتأسيس النقد القائم على الأسس العلمية بعد أن ظل لفترة طويلة حكرا على الأدباء و المتأدبين و الشعراء و الرواة و المتذوقين[6] و قد كان أبرز نقاد العصر ابن أبي إسحاق الحضرمي ، و عيسى بن عمرو الثقفي ، و أبو عمرو بن العلاء ، يحي بن يعمر البصري ، و عنبسة الفيل ... ، و قد ظهرت على أيديهم آراء نقدية كثيرة تتصل بما عرفوه من دقائق اللغة و أصول النحو و أعاريض الشعر ، و كان الأدباء يضيقون بتتبع النقاد النحويين لهم . و مع ضيق الشعراء بالنحويين فقد كانوا يأخذون برأيهم ، و يعدلون من أشعارهم إتباعا لقياسهم و قواعدهم ، فعيسى بن عمرو يرى أن النابغة الذبياني قد أخطأ في قوله :

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

فرفع (ناقع) حيث كان يجب أن ينصب على الحال [7]

و انطلاقا مما سبق ذكره يمكننا القول أن طائفتان من نقدة الأدب العربي عاشوا جنبا إلى جنب منذ أواخر القرن الأول الهجري الأدباء و اللغويون ، أما الأدباء فهم الشعراء و الرؤساء والخلفاء، فلم يكن لأحد منهم ذهن علمي ، و لا نشأة علمية ، و لا شيء مما يؤدي إلى تحليل اللغة و الأدب تحليلا عميقا ، و أما اللغويون و النحويون فأولئك الذين خلقتهم الروح الإسلامية الجديدة ، و ذهنية خاصة في تاريخ النقد وهيأت لهم لأسباب البحث المتشعب فكانوا أمزجة خاصة ، الأدبي ،[8] فنما هذا العلم الجديد و تفرع ليتناول بالدرس و التمحيص النصوص الأدبية ، من جميع نواحيه الفنية و التركيبية و النحوية و اللغوية و العروضية ... و هلم جرا ، و من ذلك ما ذهب

---

[6] المرجع نفسه ، ص 21 .

[7] منصور عبد الرحمن:اتجاهات النقد الأدبي من الجاهلية إلى نهاية القرن الرابع هجري،مكتبة لأنجلو المصرية،القاهرة،مصر،ص 71

[8] طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي القرن الرابع الهجري ، دار الكتب العلمية ، ط2، لبنان ، 2006 ، ص51 .

فلم يكن لأحد منهم ذهن علمي ، و لا نشأة علمية ، و لا شيء مما يؤدي إلى تحليل اللغة و الأدب تحليلا عميقا ، و أما اللغويون و النحويون فأولئك الذين خلقتهم الروح الإسلامية الجديدة ، وهيأت لهم لأسباب البحث المتشعب فكانوا أمزجة خاصة ، و ذهنية خاصة في تاريخ النقد الأدبي ،[8] فنما هذا العلم الجديد و تفرع ليتناول بالدرس و التمحيص النصوص الأدبية ، من جميع نواحيه الفنية و التركيبية و النحوية و اللغوية و العروضية ... و هلم جرا ، و من ذلك ما ذهب ابن جني إليه في أن مدائح المتنبي في كافور مبطنة بالهجاء ، و أن الازدواج فيها كان مقصودا ، وقد استمد ذلك من قراءته لقول المتنبي :

و شعر مدحت به الكركدن بين القريض و بين الرقي .[9]

كما استمده من إقرار المتنبي عندما قرأ عليه :

و ما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب .[10]

و نظرا لكثرة مسائل هذا العلم الجديد فقد تنوعت فيه الآراء ، و بالتالي المذاهب ، فكان مذهب أهل البصرة ، و مذهب أهل الكوفة ، فمن متقدمي نحاة البصرة : عنبسة الفيل ، و عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، و عيسى بن عمر الثقفي ، و الخليل بن أحمد ، و سيبويه ، و حماد بن سلمة ، و النصر بن شميل . و من بين متقدمي نحاة الكوفة الرؤاسي أستاذهم في النحو ، و معاذ الهراء ، و الكسائي ، و الفراء ، فكان هؤلاء النحاة يتتبعون كلام العرب ليستنبطوا منه قواعد النحو ، أو و جوه الاشتقاق أو الأعاريض التي جاء الشعر عليها ، و هذا الاستنباط يجرهم بالضرورة إلى نقد الشعر لا من حيث عذوبته أو رقته أو جماله الفني ، بل من حيث مخالفته للأصول

---

[8] طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي القرن الرابع الهجري ، دار الكتب العلمية ، ط2، لبنان ، 2006 ، ص51 .

[9] إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبي عند العرب (نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، دار الشروق، ط1 ، عمان ، الأردن ، 1993 ، ص 273 .

[10] المرجع نفسه ، ص 273 .

التي هداهم استقراؤهم إليها في إعراب أو وزن أو قافية ،[11] فقد أخذ عبد الله بن أبي إسحاق على الفرزدق قوله :

إليك أمير المؤمنين رمت بنـــــا هموم المنى و الهوجل المنعسف

و عض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف .

فقال له ابن أبي إسحاق ، على أي شيء ترتجف (مجلف) ؟ فقال : على ما يسوؤك و ينوؤك .[12] و فيما روى عن الفرزدق أنه كان يقول : علي أن أقول ، و عليكم أن تحتجوا ! ، و قد غضب الفرزدق من كثرة تتبع ابن أبي إسحاق لأخطائه ، فهجاه بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته و لكن عبد الله مولى مواليا .

فقال له ابن أبي إسحاق و لقد لحنت أيضا في قولك : (مولى مواليا) و كان ينبغي أن تقول : مولى موال ![13] و نظرا لتعصب اللغويين و النحاة للشاذ من الألفاظ و الغريب منه ، فقد تنافس الرواة في انتحال الشعر لمدهم بالشاهد النحوي .

و قد أدى هذا التنافس و التسابق و التضارب في الآراء و المذاهب إلى ظهور عدة مدارس نقدية .

2- المدارس النقدية في العصر الأموي :

لقد عبرت هذه المدارس عن اتجاهات النقد الأدبي في هذا العصر فكانت :

أ- مدرسة النقاد من الأدباء :

و قد شاع في نقد هذه الفئة من الأدباء و الشعراء عنايتهم بالمعاني التي تصور الشعور والإحساس و الأفكار التي يمثلها الأديب في تجربته الفنية ، فعقلية هؤلاء النقاد من الأدباء والشعراء كانت عقلية عربية خالصة لم تتأثر بالتيارات الأجنبية ، و ذوقهم ذوق عربي خالص فليس فيهم عالم

---

[11] طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي ، ص 53 .

[12] منصور عبد الرحمن : اتجاهات النقد الأدبي ، ص 71 .

[13] المرجع نفسه ، ص 72 .

متخصص من النحاة و اللغويين و ليس فيهم مولى و لا متقرب ، [14]و من المجالس التي دارت فيها حوارات حول نقد الشعر مجلس عبد الملك بن مروان ، فمما أثر عنه أنه كان يفضل جريرا على الفرزدق و الأخطل حين شبه نفسه بالموت في حين شبه الفرزدق نفسه بالقطران و الأخطل بالطاعون ، ناظرا إلى جانب المعنى بصرف النظر عما تتفوق به أبيات الفرزدق من حسن السبك والصياغة و تنوع الأساليب على أبيات جرير . و هو ما جعل من الناقد لا يقبل من الشاعر أن يجعل من الخليفة شرطيا له .[15]كما عاب على ابن قيس الرقيات عدم إجادته في اختيار قوافيه ...

و بناءا على ما سبق ذكره فنقد الأدباء قد اتسع أفقه ، و تعددت اتجاهاته ، تناول الشاعر كما تناول النص الأدبي من حيث الفكرة و الصياغة ،[16]فكان نقدا انطباعيا اتسم بالذاتية ؛ لأنه فطري يستمد أصوله و مقوماته من الروح العربية الخالصة ، عني بالجانب الفني و الجمالي للنص الأدبي .

ب– مدرسة النقاد العلماء من النحويين و اللغويين :

و هي المدرسة التي تناولت الأدب تناولا موضوعيا يعتمد على مقاييس الصحة و الدقة في الأداء اللغوي قبل مراعاة جانب الذوق و الإحساس و الشعور ، و قد كانت عنايتهم منصبة حول الأخطاء التي وقع فيها الشعراء من

حيث الصياغة و الإعراب و اللغة باستعماله كلمات استعمالا غير صحيح .

و من الآراء النقدية التي عالجتها هذه الفئة من النقاد ما قاله خلف الأحمر يعجب بامرئ القيس في قوله :

أفاد و جاد و ساد و زاد و قاد و ذاد و عاد و أفضل .

---

[14] منصور عبد الرحمن : اتجاهات النقد الأدبي ، ص 78 .

[15] المرجع نفسه ، ص 75 .

[16] المرجع نفسه ، ص 78 .

لأنه جمع كثيرا من المعاني ،[17] و قد اعتمد النحويون و اللغويون مقاييس من أهمها : النحو ، اللغة ، العروض ، تنوع الأغراض ، عمق الأثر النفسي ، الأصالة و الابتكار ،الخطأ الثقافي ، المقياس التاريخي .

3- طبيعة الصراع بين النقاد اللغويين و النقاد من الشعراء :

شاع في المصنفات التراثية القديمة الموجهة للعناية بالنقد معارك طريفة بين الشعراء من جهة والنحاة من جهة أخرى ، و من أعلام هذه المعارك من الشعراء : الفرزدق و بشار و ابن الرومي والبحتري و عمار الكلبي ... و غيرهم ، و من أعلامها من النحاة : عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، و أبو عمرو بن العلاء ، و سيبويه ، و نحوي يدعى حفصا ، و قد اشتهر بانتقاد المرقش ، و هو ما دعا شاعرا اسمه البردخت إلى هجائه كما كان من أعلامها أيضا : الأخفش علي بن سليمان،كذلك وجد الخلاف في بلاط سيف الدولة الحمداني بين المتنبي ومعاصره ابن خالويه [18]

و لعل لأسباب الخصومة ما قدمه النحاة من توجيهات و ملاحظات متعلقة بشعر الشعراء ، وما وقعوا فيه من أخطاء لغوية فحاولوا تصحيحها من خلال تبيان القاعدة النحوية ،التي لم يقنع بها الشعراء ، و تجاوزوا رفضهم لها إلى مهاجمة النحاة و اتهامهم بعدم القدرة على فهم الشعر و تبين أسرار لغته . و ربما أضافوا إلى هذا الاتهام وصف النحاة بالعجمة و بتحكيم المنطق و مقاييس .

ومن هذا ما جاء في قول عمار الكلبي :

ما كل قولي مشروحا لكم فخذوا ما تعرفون ، و ما لم تعرفوا فدعوا .

و يقول رؤبة :

لا ينظر النحوي فيها نظري و إن لوى لحييه بالتحكر .

و يقول أيضا :

---

[17] المرجع نفسه ، ص 81 .

[18] عبد الكريم راضي : نظرية اللغة في النقد العربي دراسة في خصائص اللغة الأدبية من منظور النقاد العرب ، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2003 ، ص 15 .

و أنا في تخيري و جدي إذا تنخلت جياد القد .
يلتمس النحوي فيها قصدي .[19]

و انطلاقا مما سبق ذكره نستشف أنه هناك اختلاف بين عمل الناقد المتخصص و بين عمل النحوي و صناعته ، فالقاضي الجرجاني قد فرق بين البصر بالشعر و مجرد المعرفة بالنحو ، و ذلك من خلال حديثه عن المعترضين على المتنبي ، و هم عنده فريقان أحدهما : نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر ، [20] و من هذا القبيل نسوق قول الجاحظ الذي يقول فيه طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار و تعلق بالأيام و الأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب و محمد بن عبد الملك الزيات . [21] كما نجد رأي البغدادي و الذي مؤداه أن النقد و العيار غامضان ، و هما صناعة برأسها ، و هي غير العلم بغريب الشعر و لغاته و معانيه و إعرابه ، و هي ممتنعة إلا على أهلها الذين صحت طباعهم وصفت قرائحهم ، و اتقدت أذهانهم ، و أفنوا أعمارهم في خدمتها ، و فرغوا أنفسهم لتحصيلها ، فحصلت لهم الرواية و الدراية ، و راضوا الكلام ، و مارسوا قول الشعر ، و خدموا علمه ، ولزموا أهله ، و دفعوا إلى مضايقه ، و كشفوا عن حقائقه ، و لاقوا فيه فرسانه و أمراءه و ميلوا حروف الألفاظ ، و قابلوا صنوف المعاني . [22]

4- علاقة النقد بالبلاغة :

ارتبط النقد بأصول بلاغية ، جعلته ينح نحو المنهجية بعد أن كان نقدا انطباعيا . فبعد أن أرست علوم البلاغة العربية ، و التي في مفاهيمها تنطلق من جمالية ثابتة تتناول مجموعة من الثنائيات

---

[19] المرجع نفسه ، ص 16 .
[20] المرجع نفسه ، ص 19-20 .
[21] المرجع نفسه ، ص 17 .
[22] المرجع نفسه ، ص 20 .

كالقديم و المحدث ، و المأثور و المبتدع ، و المطبوع و المصنوع ... الخ ، فكان بذلك الناقد الذي مهد الرواة لظهوره – ابتداء بأواخر القرن الثاني الهجري – لم يكن سوى البلاغي ، الخبير بأسرار اللغة ، و العليم بخفايا النحو والتصريف و ما إلى ذلك . و يصعب أن تفهم حركة النقد العربي بمعزل عن الجو الديني (الكلامي) الذي أخذ يسود منذ بدايات العصور العباسية .[23] و هذا ما جعل للأثر البياني (العلوم البلاغية) عربي في جوهره ؛ لأنه تعلق بالنص القرآني ، و جانب الإعجاز فيه ، فغدا البحث عن مجالات الإعجاز و السعي إلى كشف أسراره ، منيعا لأصول البلاغة ، و بالتالي تذليلا للصعوبات التي تقف في وجه اتخاذ القصيدة الجاهلية نموذجا للاحتذاء ؛ لأنها هي الأخرى أصل ، يحتاج إلى إثبات مسوغات إتباعه ، لذلك كانت الجهود تتضافر لإيجاد نظرية في الشعر .[24]

و في سعي البلاغيون لتحديد المفاهيم البيانية ، فقد ظلت مختلطة بقضايا النقد و مسائله ، و ظل الدرس البلاغي متصلا بالنص الأدبي . و قد تناولها ثلة من النقاد بالدرس و التمحيص أمثال : ابن طباطبا ، و الآمدي ، و الجرجاني ، و قدامة بن جعفر و العسكري ... ، فالبلاغي هو القادر على التمييز بين الجيد و الرديء ، بين المطبوع و المصنوع ، بين الابتداع و الجري على سنن الأقدمين . و ذلك بطريقة تتميز عن طريقة الجاهليين التي اتصفت بالانطباعية في إطلاقها الأحكام العامة عند المفاضلة بين شاعر و آخر .[25]

و نتيجة لهذا السعي و الجهود في إرساء مباحث علوم البلاغة (البيان ، البديع ، المعاني) فقد تبلورت مسائل للنقد فذهبوا مثلا لتعريف جيد الشعر على أنه أبلغه ، و البلاغة ، إنما هي إصابة المعنى و إدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف ، لا تبلغ الهذر الزائد على

---

[23] جودت فخر الدين:شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري،دار الآداب،بيروت ، لبنان ،ص 32 .

[24] المرجع نفسه ، ص 33 .

[25] المرجع نفسه ، ص 32 .

و أنا في تخيري و جدي إذا تنخلت جياد القد .
يلتمس النحوي فيها قصدي .[19]

و انطلاقا مما سبق ذكره نستشف أنه هناك اختلاف بين عمل الناقد المتخصص و بين عمل النحوي و صناعته ، فالقاضي الجرجاني قد فرق بين البصر بالشعر و مجرد المعرفة بالنحو ، و ذلك من خلال حديثه عن المعترضين على المتنبي ، و هم عنده فريقان أحدهما : نحوي لغوي لا بصر له بصناعة الشعر ، [20] و من هذا القبيل نسوق قول الجاحظ الذي يقول فيه طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار و تعلق بالأيام و الأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب و محمد بن عبد الملك الزيات . [21] كما نجد رأي البغدادي و الذي مؤداه أن النقد و العيار غامضان ، و هما صناعة برأسها ، و هي غير العلم بغريب الشعر و لغاته و معانيه و إعرابه ، و هي ممتنعة إلا على أهلها الذين صحت طباعهم وصفت قرائحهم ، و اتقدت أذهانهم ، و أفنوا أعمارهم في خدمتها ، و فرغوا أنفسهم لتحصيلها ، فحصلت لهم الرواية و الدراية ، و راضوا الكلام ، و مارسوا قول الشعر ، و خدموا علمه ، ولزموا أهله ، و دفعوا إلى مضايقه ، و كشفوا عن حقائقه ، و لاقوا فيه فرسانه و أمراءه و ميلوا حروف الألفاظ ، و قابلوا صنوف المعاني . [22]

4- علاقة النقد بالبلاغة :

ارتبط النقد بأصول بلاغية ، جعلته ينح نحو المنهجية بعد أن كان نقدا انطباعيا . فبعد أن أرست علوم البلاغة العربية ، و التي في مفاهيمها تنطلق من جمالية ثابتة تتناول مجموعة من الثنائيات

---

[19] المرجع نفسه ، ص 16 .
[20] المرجع نفسه ، ص 19-20 .
[21] المرجع نفسه ، ص 17 .
[22] المرجع نفسه ، ص 20 .

كالقديم و المحدث ، و المأثور و المبتدع ، و المطبوع و المصنوع ... الخ ، فكان بذلك الناقد الذي مهد الرواة لظهوره – ابتداء بأواخر القرن الثاني الهجري – لم يكن سوى البلاغي ، الخبير بأسرار اللغة ، و العليم بخفايا النحو والتصريف و ما إلى ذلك . و يصعب أن تفهم حركة النقد العربي بمعزل عن الجو الديني (الكلامي) الذي أخذ يسود منذ بدايات العصور العباسية .[23] و هذا ما جعل للأثر البياني (العلوم البلاغية) عربي في جوهره ؛ لأنه تعلق بالنص القرآني ، و جانب الإعجاز فيه ، فغدا البحث عن مجالات الإعجاز و السعي إلى كشف أسراره ، منيعا لأصول البلاغة ، و بالتالي تذليلا للصعوبات التي تقف في وجه اتخاذ القصيدة الجاهلية نموذجا للاحتذاء ؛ لأنها هي الأخرى أصل ، يحتاج إلى إثبات مسوغات إتباعه ، لذلك كانت الجهود تتضافر لإيجاد نظرية في الشعر .[24]

و في سعي البلاغيون لتحديد المفاهيم البيانية ، فقد ظلت مختلطة بقضايا النقد و مسائله ، و ظل الدرس البلاغي متصلا بالنص الأدبي . و قد تناولها ثلة من النقاد بالدرس و التمحيص أمثال : ابن طباطبا ، و الآمدي ، و الجرجاني ، و قدامة بن جعفر و العسكري ... ، فالبلاغي هو القادر على التمييز بين الجيد و الرديء ، بين المطبوع و المصنوع ، بين الابتداع و الجري على سنن الأقدمين . و ذلك بطريقة تتميز عن طريقة الجاهليين التي اتصفت بالانطباعية في إطلاقها الأحكام العامة عند المفاضلة بين شاعر و آخر .[25]

و نتيجة لهذا السعي و المجهود في إرساء مباحث علوم البلاغة (البيان ، البديع ، المعاني) فقد تبلورت مسائل للنقد فذهبوا مثلا لتعريف جيد الشعر على أنه أبلغه ، و البلاغة ، إنما هي إصابة المعنى و إدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف ، لا تبلغ الهذر الزائد على

---

[23] جودت فخر الدين:شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري،دار الآداب،بيروت ، لبنان ،ص 32 .

[24] المرجع نفسه ، ص 33 .

[25] المرجع نفسه ، ص 32 .

قدر الحاجة و لا تنقص نقصانا يقف دون الغاية .[26] بالإضافة إلى معالجتهم قضايا نقدية أخرى منها:اللفظ والمعنى، الطبع و الصنعة، القدم و الحداثة ، الانتحال ...الخ .

ومن بين القضايا التي ساد حولها جدل كبير ثنائية اللفظ والمعنى في الشعر،فقد كثر الحديث حول تفضيل واحدهما على الآخر،وحول كيفية الإجادة في كليهما ، و حول الائتلاف بينهما .فلقد كان النظر إلى المعنى مستقلا تمام الاستقلال عن النظر إلى اللفظ سائدا ما قبل عبد القاهر الجرجاني . وإذا كانت البلاغة مقصورة على المعنى .[27]

و من هذا المنطلق انبرى النقاد فانقسموا إلى فئات ثلاث منها : (أنصار المعنى و أنصار اللفظ ، و هناك من يجمع بينهما و هم أصحاب المدرسة التوفيقية) ، فتباينت المفاهيم و الآراء في تقديم مجموعة من المفاهيم كمفهوم المعنى الذي ذهب أغلبهم إلى تعريفه على أنه الأفكار التي ينبني عليها البيت الشعري أو الغرض المراد ، و أن اللفظ هو التأليف و القافية و الوزن للقصيد ، و من بين النقاد الذين عرفوا المعنى الجاحظ ، و الذي كان يرى أن المعاني مطروحة في الطريق ، فهي منتهية بالنسبة إليه و إنما الأولوية تكون للألفاظ التي هي متوالدة .

و من النقاد من يجعلها حكرا على الشاعر و شعره ، كما ذهب إليها قدامة بن جعفر ؛ حيث يقول : المعاني كلها معرضة للشاعر ، و له أن يتكلم منها فيما أحب و آثر ن غير أن يخطر عليه معنى يروم الكلام فيه ، إذ كانت المعاني للشعر بمزلة المادة الموضوعة و الشعر فيها كالصورة ، كما يوجد في كل صناعة من أن لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ،مثل الخشب للنجارة ،والفضة للصياغة.[28] فالناقد هنا نجده قد قدم مفهوما للشعر ، انطلاقا من تفضيله للمعاني على حساب الألفاظ ، فهو يذهب للقول أن المعاني غزيرة في ذهن الشاعر و معرضة له فيما يقول و فيما لا يريد القول . و قد قرن الشعر في تكوينه بالمادة الأولية ، التي عادة تكون جوهر الحرفة

---

[26] المرجع نفسه ، ص 33.

[27] المرجع نفسه ، ص 34 .

[28] المرجع نفسه ، ص 35 .

وأساسها ، و عليه كانت المعاني في نظره تتمثل في هذه المادة ، و الشاعر هو الحرفي الذي يقولب مادته على أي شاكلة يرضاها و يريدها . و عليه كان اهتمام النقاد بالمتقدمين من الشعراء على المتأخرين لأنهم كانوا أسبق إلى المعاني [illegible]

و بعدها رأيناه من اهتمام ثلة من النقاد بالمعنى على حساب اللفظ ، نجد من النقد من يفضل اللفظ لأن الشاعر عندهم هو البارع في النظم أي في صفة الألفاظ وفقا لقواعد البلاغة والنحو ، و منها قول الحادرة الذبياني :

[illegible]

و تصدقت حتى استبك بواضح صلت كمنصلت الغزال الأتلع

و بمقلتي حوراء تحسب طرفها [illegible] سنان حرة مستهل الأدمع

و إذا تنازعك الحديث رأيتها [illegible] حسنا تسنمها لنبع المكسع

كغريض سارية أدرته الصبا بتريل أسجر طيب المستنقع [29]

فهو يريد النظم الكامل الذي يظهر في ثناياه جمال الألفاظ المفردة، و هذا ما نجده أيضا في قول الشاهر:

و لما قضينا من منى كل حاجة و مسح بالأركان من هو ماسح .

و شدت على دهم المهادي رحالها و لم ينظر الغادي الذي هو رائح .

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا و سالت بأعناق المطي الأباطح . [30]

و تكون البلاغة بذلك هي مجموعة القوانين و المقاييس التي سعى النقد لاستلهامها ، و تقويم الشعر انطلاقا منها ، و ما الناقد في هذه الحالة إلا المتضلع من علوم البلاغة ، الذي يستطيع الحكم على مدى التزام الشاعر بشكل القصيدة المركوز في الطبع . و لما كانت البلاغة في نشأتها مرتبطة بالعلوم الأدبية و اللغوية و النقدية ، فان الدراسات القرآنية و علومها هي المؤثر الرئيس في ولادة هذا العلم ، و بالتالي كانت البلاغة مرتبطة بأمور كلية ذات قيم ثابتة ينطوي عليها التفكير الديني

---

[29] منصوري عبد الرحمن ، اتجاهات النقد الأدبي ، ص 192 .

[30] المرجع نفسه ، ص 192 ، 193 .

، فإنها ليست سوى دعوى للالتزام بالشكل ذلك أن الشكل في خضوعه لتحديدات ثابتة ، يبقى على التعبير الأدبي كفاعلية لإظهار المعاني الثابتة .

و في الختام نخلص إلى القول أن النقد العربي ما بين القرن الثاني و القرن الثامن الهجري لم يكن سوى تطبيق لعلوم البلاغة ، التي أصبحت بتأثير الفلسفة و المنطق نظاما محكما ، لا يرى إلى الظاهرة الأدبية إلا من خلاله . و قد وضعت المصنفات البلاغية لتستطيع التصدي لكل محدث ، ورده إلى مثاله القديم . لتتصدى بذلك إلى كل أثر أجنبي ، خاصة ما تعلق بالأثر اليوناني من فلسفة و منطق ، فكانت مشكلة المحدث و القديم مشكلة النقد الأساسية ؛ لأنها على علاقة مباشرة بالعقيدة ،[31] و البلاغة كانت تأصيلا من شأنه إخضاع كل ما هو جديد ، حتى أن المتأخرين من النقاد ، و منهم من تهاون بشأن إعطاء الأفضلية للمتقدم على المتأخر لتقدمه فقط .

[31] جودت فخر الدين : شكل القصيدة ، ص 41 .